اعطِ القوسَ باريها

اذا مرض ابن زيد لم يداوِ زيد بنفسهِ بل اتاهُ بالطبيب. واذا تخرّبت ساعتهُ لم يحاول اصلاحها بيدهِ بل ذهب بها إلى الساعاتي. واذا تقشّر الدهان عن جدران بيتهِ وكواهُ لم يدهنها بقلمهِ بل وكّل بها الدهّان. والناس في معاملاتهم كلها يخصون كل عمل بمن هو اهل لهُ فلا يحسبون الطبيب قادرًا على اصلاح الساعات ولا الدهّان على تطبيب المرضى ولا الساعاتي على دهن الجدران. ولكنهم اذا جاءوا الى سياسة الممالك وتدبير شؤون العباد حسبوا كل احد قادرًا على كل شيء كما قال الفيلسوف ستورت مل. فترى الاحمق الذي تترفع عن ان تستشيرهُ في احقر امر من امورك يشور عَلَى الوزراء الذين قضوا الاعوام الكثيرة في معاركة السياسة وتدبير الممالك ويخطّىء اعمالهم او يصوبها حسبما يبدو لهُ

قلنا مرةً لوزير لو طلب منك فلان وظيفة تليق بهِ ويكون كفوءًا لها ففي اي وظيفة تضعهُ. فقال عَلَي الفور لا ارضى ان يكون قواسًا (حاجبًا) عَلَى بابي. فقلنا ولكن الرجل ينتقد اعمالك ويشور عليك ان تفعل هٰذَا ولا تفعل ذاك. فقال وهٰذَا شرُّ البليتين

وليس بمستغرب ان يغترَّ الانسان بنفسهِ ويدَّعي بما ليس فيهِ ولكن العجب العجاب ان الناس الذين لا يصدقون دعوى المتطفلين عَلَى العلوم والفنون والاعمال يصدقون دعوى المتطفلين عَلَى السياسة ويقبلونها بلا دليل كأنهم يحسبون سياسة الممالك وتدبير البلدان من المهنات الهينات التي يحسنها كل احد وانها دون الحلاقة والحجامة والسكافة وكل الصنائع والاعمال لان هذه لا يحسنها المرء الاَّ بعد ان يزاولها مدةً طويلة واما سياسة البلدان فيحسبون كل احد كفوءًا لها ولو لم يزاولها قط

ولا يقتصر هٰذَا الوهم على عامة الناس بل يتناول خاصتهم ايضًا ويتناول رجال السياسة انفسهم فانهم كثيرًا ما يغلّبون الصيغة على الكفاءة ويختارون لادارة شؤون العباد اناسًا لا شأن لهم فيها ولا خبرة. ولا يصعب عليهم ان يجعلوا القاضي واليًا والوالي قاضيًا. واغرب من ذلك انهم يقلدون المناصب بالارث

ان افكه رواية قرأناها في صبانا رواية ولدٍ ادَّعى صناعة الطب لان اباهُ كان طبيبًا فكانت هذه النكتة واسطة الرواية وبيت قصيدها. وكثيرًا ما رأينا الناس يقرأونها ويعجبون بها ويضحكون حتى يفحصوا الارض بارجلهم. والمضحك لهم ادَّعاء ذلك الشاب صناعة الطب

لان اباهُ كان طبيباً وقد ورث عنهُ كتباً كثيرة في الطب . فما يقول الجمهور اذا علموا ان نصف الذين يتولون شؤونهم من الملوك الى الوزراء والولاة والحكام لم يتربعوا في المناصب ألّتي هم فيها بالجدارة والاستحقاق بل بالصنيعة والارث لان الذين اقاموهم فيها يحسبون سياسة العباد اسهل من كل الاعمال ألّتي تقتضي استعداداً وتدريباً

وكما يخطئُ الناس في تقليد المناصب لغير الاكفاء يخطئون في انتقاد اعمال الاكفاء وتخطئتها واباحة ذلك لكل مَن خطَّ حرفاً على قرطاس او فاه بكلمتين منسجمتين

اجتمعنا بالامس بنفر من الاذكياء فسألونا عن رأينا في حادثة جرت فقلنا لا رأي لنا فيها ولكننا نعتقد ان ما فعلهُ رجال الحكومة بمد التروي وامعان النظر هو الاصلح لان التجارب قد دلت على انهم اكفاء . فسخطوا من ذلك وقالوا ان رجال الحكومة في ضلال مبين وكان الواجب عليهم ان يفعلوا كذا وكذا . فقلنا لهم أحقيق انكم تظنون انفسكم اعدل في القضاء من رجال القضاء الذين تعتمدون عليهم في فصل خصوماتكم وامهر في الادارة من رجال الادارة الذين تتكلون عليهم في ادارة شؤون بلادكم . ومَن منكم اذا مرض ابنهُ يداويهِ بنفسهِ ولا يأتيهِ بطبيب بل مَن منكم اذا تخربت ساعتهُ يصلحها بيدهِ ولا يعطيها لمصلح الساعات فان كنتم لا تعتمدون على انفسكم في تدبير الامور الصغيرة الخاصة فكيف تقدرون على تدبير الامور الكبيرة العامة والحكم فيها ولماذا لا تعطون القوس باريها في ادارة بلادكم كما تعطونها في كل الاعمال . نعم لو كان رجال الادارة والقضاء من غير الاكفاء لحقَّ لكم الاعتراض عليهم في هذا الامر وفي سائر الامور لان مَن لم يكن كفوءاً لعمل ندر ان يعملهُ حسب الواجب

فأفحموا ولكن لم تبدُ عليهم دلائل الاقتناع لان عوامل التضليل اقوى من عوامل الارشاد وقد اثَّرت في نفوسهم لطول ما تردَّد صداها على مسامعهم ثم قالوا كيف تحظر علينا انتقاد اعمال الحكام والانتقاد روح الحرية . فقلنا ان ما ابديناهُ لا يمنع اهل الرأي والنظر من انتقاد اعمال الحكام ولكن المنتقد الذي يقيم نفسهُ حكماً يجب ان يبين من مواقع الخطاء وادلتهِ ما يشهد لهُ باصالة الراي وحسن النظر والالمام بما ينتقدهُ والاَّ فعليهِ ان يصمت ويعتمد على غيرهِ شأنهُ في كل اعمالهِ فاننا لم نرَ احداً يجهل صناعةً وهو يحتقر اصحابها او يجهل علماً وهو ينتقد اربابهُ . ولا نقول ان للسياسة والادارة قوانين وقواعد محدودة كالنحو والحساب ولكن لها اصولاً مرعيَّة تدرس في المدارس وتعلَّم بالمطالعة والاختبار وقواعد متضمنة في علم التاريخ وعلم الاخلاق وعلم الانسان فمن أُوتي مقدرة عقليَّة لادارة شؤون العباد وزاولها زماناً حتى علمتهُ التجارب ما يتعلمهُ غيرهُ في المدارس حق لهُ ان يتولى الادارة

و ينتقد اعمال الذين يتولونها . ومن تعلم تلك العلوم وتمرّن فيها حقّ لهُ ايضاً ما حقّ الاول . واما من كان لا علماً ولا عملاً فاحرِ بهِ ان يعطي القوس باريها و يشتغل بما يعلمهُ عمّا لا يعلمهُ و بما يفيدهُ عمّا لا يفيدهُ ولا يفيد غيرهُ

النار والسيف في السودان

فرار سلاتين باشا

اتضح من الفصول السابقة ان الخليفة عبدالله التعايشي كان حريصاً على سلاتين باشا لا يسمح لهُ بمغادرة ام درمان ساعةً واحدة . و يظن سلاتين ان الخليفة كان يخشى من انهُ اذا فرّ من قبضتهِ اغرى الحكومة المصرية او دولةً من الدول الاوربيّة بفتح السودان وكان واسطة بينها و بين قبائلهِ لانهُ يعرف لغتهم ومذاهب بلادهم ولأنّ رؤساء البلاد يحبونهُ و يثقون بهِ و يودون العود الى كنف الحكومة المصرية على يدهِ . وكان للخليفة غرض آخر من ابقائهِ عندهُ وهو انهُ كان يتخذهُ دليلاً على انتصار المهدوية وارتفاع شأنها فيقول لقومهِ " هٰذا حاكمكم الذي كنتم تخضعون لهُ وتأتمرون باوامرهِ قد صار خادماً من خدمي وعبداً مطيعاً لي . هٰذا هو الرجل الذي تمنّع بملاذ الدنيا ولم يلتفت الى الآخرة صار الآن يلبس جبة مرقعة و يمشي حافياً في سبيل الله ولله الامر من قبلُ ومن بعدُ وهو الرحمن الرحيم "

ولم يكن الخليفة يهتمّ باحد من اسرى الاوربيين كما كان يهتم بسلاتين فكنوا بعيدين عنهُ في ام درمان واحترفوا فيها حرَفاً تقوم بمعيشتهم ولو بالتقتير . فالاب اهر ولدر (الذي اشتهر امرهُ بعدئذٍ) احترف الحياكة والاب روزينولي وبيو رغنتو فتحا دكاناً صغيراً كانا يطبخان فيهِ و يبيعان الطعام . وقس على ذلك سائر الاوربيين والسوريين والاقباط وعددهم نحو خمسة واربعين رجلاً وكلهم مأمورون بالبقاء في ام درمان ومتضامنون على ذلك فلما فرّ الاب اهرولدر طرح رفيقهُ بيو في السجن مقيداً بالاغلال وزادت المراقبة على بقيّة الاسرى وأُسكنوا بقرب المسجد حتى يحضروا الصلوات فيهِ دائماً

وكان الخليفة مغرماً بالساعات وعندهُ كثير منها وقد وكّل سلاتين بتدويرها . وفي ام درمان ساعاتي ارمني فكان سلاتين يمضي اليهِ بحجة اصلاحها واذا اراد ان يكلم احداً في امر اشار اليهِ من طرف خفي ان يوافيهُ الى حنالك فيأتي هٰذا و يبتاع شيئاً من الساعاتي ولو